فالقرآن الكريم النصّ الخالد ، المعجز ، ما زال موطن عناية الباحثين والدارسين منذ نزوله إلى العصر الحالي وسيبقى قبلة للعلم والعلماء إلى حين قيام الساعة . فلا تخلو أيّة دراسة وبحث من أهميّة وفائدة ، ودرجة الأهميّة هذه تُحدّدها رغبة البحث والسؤال ، ولا يخفى أنّ هذه الرغبة كانت وراء اختيارنا للدلالة المعجميّة في القرآن الكريم، ولضبط الموضوع المنظور فيه وتحديده سعينا إلى اختيار الدلالة المعجميّة في تفسير البحر المحيط ؛ فالبحث عن المعنى المعجميّ في تفسير البحر المحيط بوساطة الدلالة المعجميّة هو ما يُحدّد موضوعنا .

إنّ أدبيّة اللغة التفسيريّة ، وفنّية الأفق التفسيريّ المرتبط بالأفق القرآنيّ ذي الصبغة المعجميّة الدلالية والاتساع في التعبير يُغري الباحث في أن يسبر هذا الغور ، فالنصّ هو سياق المعنى الخصب ، والقرآن يبنيه على وفق نظام خاصّ ، إذ نزل بلسان عربيّ مبين لا بنحو عربيّ مبين ، وقد امتدّت تراكيبه على رحاب اللغة ، ولم تنحبس في بوتقة القواعد لذا يُعدّ النصّ مجموعة من الأحداث الكلامية ذات معنى وغرض تواصليّ، وفهم النصّ يعتمد على مجموعة من القرائن ومن أهمها (الدلالة المعجميّة) ، موضوع رسالتي ، فهي التي تُحدّد قيمة اللفظ المتوخّى في توجيه عمليّة اتّساق النصوص التي تؤدّي المعنى خير أداء .

([1]) نهج البلاغة ، الإمام علي (عليه السلام) : ٢ .

فالنص القرآنيّ الكريم نسيجُ حسنٍ من الألفاظ والعبارات التي تطّرد في بناء مُنظّم متناسق ، يُعالج موضوعاً أو موضوعات متعدّدة في أداء يتميّز على أنماط الكلام اليوميّ والكتابة غير الأدبيّة بالجماليّة التي تعتمد على التخيّل والإيقاع ، والتصوير والإيحاء والرمز ، لذلك عُدّت الدلالة المعجميّة مدخلاً مهمّاً للوصول إلى دراسة المعنى وتحديده ، وقد استدلّ بها اللغويّون والمفسّرون في ترجيح معنى اللفظة ، فالقرآن يُهيمن على اللغة كلّها ، ما اطّرد منها وما لم يطّرد ، إنّ وجود التفاسير المتعدّدة المتنوّعة للقرآن الكريم خير دليل على استقرار معنى الدلالة عمليّاً ؛ إذ إنّ كلّ التفاسير تسعى للوقوف على المعنى القرآنيّ سواء من الألفاظ المفردة ، أم المركبة ، أم من السياق .

من هنا كان الاتّفاق مع أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور أحمد علي حنيحن على اختيار تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسيّ ودراسة آليّات الدلالة المعجميّة المتوافرة في التفسير التي يعتمدها هذا المفسر (رحمه الله)، والذي يعدّ ممّن ينضوي تحت مصطلح (التفاسير اللغوية) ، إذ يُحكِم هذا المفسّر القرآن الكريم في مقاليد فكره ، وقد استطاع أن يُقدّم رؤية قرآنيّة تمتلك التفاتات مهمّة وقويّة في التعامل مع النصّ القرآنيّ على مستوى الدلالة المعجميّة ، وذلك يُشير إلى تأثير الأسلوب تأثيراً كبيراً في المعنى الوظيفيّ المقصود من الكلام المنطوق ، و على الغرض الكامن لدى المخاطِب تتوقّف طريقة نظم الكلام بأسلوب خاصّ ، فالأسلوب وظيفة تُعبّر عمّا في ذهن المتكلّم، و هو طريقة المخاطِب في عرض رسالته ، و له الحقّ المطلق بطريقة عرضها على حسب ما يقتضيه المقام ، فأمّا أن يعرضها على الأصل المفترض لتراكيب اللغة و قواعدها ، و أمّا أن يعرضها بتغاير أسلوبيّ يُحدثه على الأصل المفترض للغة و القواعد.

إذن القرآن الكريم قد كان له طريقة متميّزة في اختيار الألفاظ للتعبير عن القصديّة في النصّ ، فالدلالة المعجميّة كانت من العلامات الفارقة بين المدلولات اللغويّة

المفضية إلى التناسق الدلاليّ الذي يرمي إلى توجيه قصديّة النصّ ، فالنصّ اللغويّ هو سلسلة من العلاقات المنتظمة التي تؤدّي إلى بيان الدلالة المقصود من الألفاظ في جانبيها الوظيفيّ وأثره في تجاور اللفظة مع الألفاظ الأخرى المكوّنة للنصّ ، لذلك أدرك اللغويّون والمفسّرون أثر الدلالة المعجميّة في توجيه المعنى وتحديده ، ومصداق ذلك ما جاء عند مفسّرنا في تفسيره البحر المحيط .

اقتضى ما سبق ذكره منا أن نجعل البحث على ثلاثة فصول تسبقها مقدّمة وتمهيد، وتعقبها خاتمة ، فعقب المقدمة بدأ البحث بالتمهيد ، وقفت فيه على ثلاثة محاور : تناولتُ في المحورِ الأوّلِ مفهوم الدلالة المعجمية وأبرزِ خصائصِها وأمّا المحورُ الثاني فكانَ في البناء اللفظيّ للقرآن الكريم ، وأمّا المحور الثالث فكان في أبي حيّان ومنهجه في الدلالة المعجمية . أمّا الفصول الثلاثة فقد كان الأوّل منها بعنوان (أثر الدلالة المعجميّة في تحديد المعنى الصرفي) وجاء في ثلاثة مباحث ، الأوّل : المصادر ، والثاني : المشتقّات ، والثالث : الأفعال ، و أمّا الفصل الثاني فكان بعنوان (المعنى المعجميّ ووسائله في التفسير الدلاليّ) ، وانعقد في ثلاثة مباحث ، الأوّل : الترادف ، والثاني : المشترك اللفظيّ ، والثالث : الأضداد ، وانعقد الفصل الثالث بعنوان (أثر المعنى المعجميّ في تحديد الدلالة السياقيّة) ، وجاء في ثلاثة مباحث ، الأوّل : المعنى المعجميّ وأثره في ترجيح المعنى السياقيّ ، والثاني : المعنى المعجميّ وأثره في تحديد المخاطَب ، والثالث : الفروق اللغويّة بين المعنى المعجميّ والسياقي . ثمّ ختمتُ هذه الفصولُ بخاتمةٍ كشفتُ فيها عن أبرز النتائجِ التي تَمخّضَ عنها البحثُ .

كانت طريقة البحث وطريقة الانتقال من فكرة إلى فكرة ومن مبحث إلى آخر، ومن فصل إلى ثان، طريقة اقتضائيّة ، بمعنى أنّ الأفكار هي التي تطلب ما يليها وما يسبقها ، وكذلك الفصول داخل الرسالة ، فليست عمليّة تقديم فكرة ما على أخرى ، وموضوع على آخر ، ناتجة من فراغ ، بل لاعتبارات منهجيّة مستقلّة عن الفرض

والإسقاط الذي لا يُراعي طبيعة الموضوع ، فخلاصة كلّ موضوع هي بداية موضوع آخر ، لنحقّق بذلك الدقّة والضبط المنهجيّين ، وكلّ ذلك جرى في إطارِ المنهج التحليليّ الوصفيّ ، مع الاعتماد على المقارنة بين ما نخلص إليه وآراء غير أبي حيّان في المسألة المدروسة ، على أنّ هذه الدراسة ليست استقصائيّة في عرض العيّنات ، بل تكتفي بإيراد نماذج منها لبيان أثر الدلالة المعجميّة لدى المفسّر .

ما بقي لديّ من كلام ، فهو لأستاذي وأبي الروحي الدكتور أحمد علي حنيحن حفظه الله تبارك وتعالى ، فهو بصيرتي وبصري لهذه الرسالة ، كما أقدّم حبّي ووفائي لقسم اللغة العربيّة في كليّة الآداب في جامعة ذي قار ، وإلى أساتذة هذا القسم فردا فردا، وتعالى الله عن مدارك الأوصاف ، وهو الخبير بما تكنّه الصدور .

وعلى الرغم من ذلك قولنا الأوّل والآخر : الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ولسنا ندّعي أنّنا قد أحطنا بجميع الدلالات المعجميّة في تفسير الكتاب الكريم إحاطة شاملة فلربما فاتنا منها فائت ، لكنّ ما قمنا به يُعطي صورة عن الدلالة المعجميّة في تفسير البحر المحيط ، فإن كان وافياً فذلك ما ابتغينا و أردنا ، وإن لم يكن فالكمال لله وحده ، ونسأله أن يجنّبنا الخطأ والزلل في القول والعمل ، وأن يجعل ذلك خالصا لوجهه ومنفعة لعباده .